طبيعة الرواية التاريخية في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ/ 940م)

أ.د. رحيم حلو محمد البهادلي
كلية التربية للبنات/ جامعة البصرة

The Nature of the Historical Novel in the Book of the Contract of Ibn Abed Raba al-Andalusi

Prof. Dr. Rahim Hilo Mohammed Al-Bahadli
College of Education for Women\ University of Basra
rahiemhiloo@yahoo.com

Abstract

This research deals with the study of the nature of the historical novel in the book of the unique contract of Ibn Abed Raba al-Andalusi, especially since the book is not a historical book but it is in the field of Arabic literature, but it is characterized by the mention of a huge number of historical novels, especially in the social aspect, which hardly find any impact in the books History in all its forms, which gave the book a great historical practical advantage for the author so that several can be among the books of rare social history.

The second thing that distinguished the book is that its author Andalusi was born in Cordoba and lived there, and we did not see him present in the Orient except for one visit that was in need of the Holy House. Therefore, the stories are narrated by an Andalusian man who was born and lived in Andalusia on the history of the Islamic Orient - Peninsula Arabs, Iraq and Syria. When he returns to the nature of his novels, we find them at the top of the magnificence, covering a large historical space in social history as well as political, but his novels seem not to be subject to the standards of criticism and scientific analysis, but some stories were transferred from the literature preceded him as Jahaz in his various literary writings, The great writer, who lost most of his writings so the unique contract is a safe depository of those lost literature, as well as Ibn Abi Shaybah, Abu Mahesher and Riyashi, and Haytham bin Uday, and to my followers, and others, did not act by the information or the information or criticism or explanation, as it is found.

Keywords: The Historical Novel, AlEqd AlFareed, Ibn Abed Rabbo Andalusian.

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة طبيعة الرواية التاريخية في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (ت328هـ/ 940م)، سيما وأن الكتاب ليس كتابا تاريخيا إنما هو يدخل في مضمار الأدب العربي، ولكنه تميز بذكر كم هائل من الروايات التاريخية سيما في الجانب الاجتماعي والتي في الغالب نكاد لا نجد لها أثرا في كتب التاريخ بشتى صنوفها، الأمر الذي أعطى الكتاب ميزة علمية تاريخية كبيرة للمؤلف بحيث يمكن عدة من ضمن كتب التاريخ الاجتماعية النادرة.

والأمر الثاني الذي ميز الكتاب هو أن مؤلفه أندلسي ولد في قرطبة وعاش فيها ولم نشهد له تواجدا في المشرق، فلذلك تعد تلك الروايات روايات رجل أندلسي ولد وعاش في الأندلس عن تاريخ المشرق الإسلامي – شبه جزيرة العرب والعراق والشام–.

وعند العودة إلى طبيعة رواياته نجدها واقعا في قمة الروعة وهي تغطي مساحة تاريخية كبيرة في التاريخ الاجتماعي وكذلك السياسي، ولكن رواياته فيما يبدوا لم تكن خاضعة في غالب الأحيان لمعايير النقد والتحليل العلمي، إنما كانت روايات قسما منها نقلها عن أدباء سبقوه كالجاحظ في مؤلفاته الأدبية المتنوعة، وعلى الأصمعي الأديب الكبير والذي ضاعت اغلب مؤلفاته لذلك يعد العقد

الفريد مستودعا أمينا لتلك المؤلفات المفقودة، فضلا عن ابن أبي شيبة، وأبو معشر، والرياشي، والهيثم بن عدي، والمدائني، وغيرهم، فلم يتصرف بها أو يذيل عليها بمعلومة أو نقد أو تعليل، بل أوردها كما هي إلا ما ندر.

الكلمات المفتاحية: الرواية التاريخية، العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي.

المقدمة:

لقد ورثنا عن تاريخ أجدادنا العرب المسلمين عادات وتقاليد ونظم ومفردات حضارية اجتماعية كثيرة جدا، وهي تضاهي ما ورثناه من تاريخ سياسي وعسكري على مختلف العصور الإسلامية، ولكن تلك المادة التاريخية التي تصب في الجانب الاجتماعي واقعا لم نجد منها في كتب التاريخ أو كتب التراجم والطبقات إلا النزر اليسير، إذ كانت كتب التاريخ العامة وحتى الخاصة بمدينة أو بلد ما منصبة على الجانب السياسي والعسكري أو الإداري وأحيانا الجانب الاقتصادي أيضا ولكن بشكل ضئيل، في الوقت الذي اهتمت فيه كتب التراجم والطبقات بالتعريف بالشخصيات الواردة فيها بصورة عامة دون الدخول في جزئيات الحياة العامة أو المفردات الاجتماعية الدقيقة للمترجم لهم.

لذلك حينما يراد دراسة جوانب اجتماعية عن مجتمع معين يصاب الباحث في أول وهلة بالحيرة عن مكان تواجد تلك الروايات، وسرعان ما يكتشف أن تلك المادة قد ملئت بطون كتب الأدب العرب واللغة وكذلك يمكن أن يستشفها من دواوين الشعر أيضا، فالأدباء يؤرخون لتفاصيل الحياة العامة وبشكل مفصل دون أن يعوا أنهم يؤرخون، إذ أن اهتمامهم كان منصبا لإظهار الجوانب الأدبية فيستشهدون بروايات تاريخية عن حياة العامة أو الخاصة الاجتماعية، فضلا عن الروايات السياسية والعسكرية.

وكتب الأدب واقعا هي كثيرة ومتنوعة وغزيرة بتلك الروايات الاجتماعية، وقد صب اهتمامنا هنا على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، لنقوم بجولة سريعة لمعرفة طبيعة تلك الروايات التاريخية التي قدمها لنا حول تاريخ المجتمع العربي الإسلامي حتى قبيل وفاته بفترة يسيرة.

والمعروف على كتب الأدب العربي أنها تورد روايات تاريخية بصورة عرضية، وهي بنفس الوقت خالية من الأسانيد أو ذكر الموارد المعتمدة، وتتسم غالبيتها بطابع القصص أو الأساطير والخرافات أحيانا، كما أنها تتسم بالتفصيل والدقة حول دقائق الأمور الاجتماعية، وهو ما يميز ذلك النوع من الروايات التي قد لا نستغني عنها إذا ما أردنا دراسة جانب اجتمعي ما.

وقبل أن نقوم بدراسة روايات ابن عبد ربه سوف نقدم شيء مبسط عن حياته العامة وعلى النحو التالي:

همسات من حياة ابن عبد ربه:

هو احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان[1]، ويتضح من نسبه ذلك انه رجل أموي ويعود إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كما ورد في أعلاه.

وقد ولد ابن عبد ربه سنة(246هـ/ 860م) في الأندلس وتحديدا في مدينة قرطبة[2]، وقد لقب الرجل بلقب شهاب الدين والقرطبي والأندلسي, واشتهر معروفا بين الأوساط العلمية في كافة أنحاء العالم الإسلامي بابن عبد ربه الأندلسي، وكان يكنى الرجل بأبي عمر[3].

وكان ابن عبد ربه فيما يبدوا رجلا من العامة في بداية حياته، ولكنه سرعان ما أن أصبح من طلبة العلم فأخذ يعرف عنه ويسمع به تدريجيا بين الأوساط العلمية[4].

وفيما يبدوا فإن ابن عبد ربه لم يتسنم منصبا معينا في إدارة إحدى مفاصل الدولة في الأندلس، في الوقت الذي نعرف فيه أن أرباب السلطة كانوا يستعملون العلماء في بعض المناصب المهمة، إلا أن بعض المصادر الإسلامية ذكرت بأنه كان شاعراً يتنقل من مكان إلى آخر إلى أن جاء عهد عبد الرحمن الناصر فجعله شاعر القصر حتى مرضه ووفاته[5].

أما عن ثقافة ابن عبد ربه ونبوغه في العلم والمعرفة فقد كان يعد الرجل بحق بأنه من الشخصيات التي برعت في الأدب ونجحت فيه نجاحا باهرا، ويعود ذلك النجاح إلى تأثره بالحياة الفكرية والعلمية التي كانت سائدة في الأندلس بشكل عام وقرطبة بشكل خاص، فقد ولد الرجل كما اشرنا في قرطبة، ثم انه نشأ فيها واكتسب جميع علومه ومعارفه فيها أيضا، وقرطبة هي التي كانت تزخر بالعلماء والأدباء من الوافدين على قرطبة، ومن علماؤها الأصليين، فقد وصفها المقري بأنها: "كانت قبة الإسلام ومجتمع العلماء الأنام... واليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء"[6].

وقد وصف أحد الباحثين ابن عبد ربه بالقول: " وذكر أن ابن عبد ربه كان ملماً بثقافة عصره في العديد من المجالات الثقافية، ومطلع على الكتب التي الفت في المشرق العربي في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، يجدها أن جميعها أو اغلبها كانت تجنح إلى الأدب الرفيع، وتكون له موهبة كامنة وذكاء وأدب واجتهاد، وتكون لديه ملكة قادرة على الإنشاء، فلا عجب إذن أن نجده شاعراً يعتز بشعره الذي في الحقيقة معارضة لأغلب الموضوعات الأدبية التي يذكرها في الكتاب[7].

وما لبث أن أصبح ابن عبد ربه من المع علماء عصره في الأندلس، فقد وصفه اليافعي بالقول: "كان رأس العلماء المكثرين والاطلاع على أخبار الناس[8]، وذكر الحميدي بأنه: "من أهل العلم والأدب والشعر"[9]، كما وصفه الذهبي ببعض النعوت العلمية مثل: "العلامة"، و: "الأديب الإخباري"، كما وصفه بأنه: "كان أديب الأندلس وفصيحا"[10]، كما وصفه الثعالبي بأنه: "أحد محاسن الأندلس علماً وفضلاً وأدباً ونبلاً"[11]، فيما ذكره ابن تغري بردي بقوله: "كان أديب الأندلس وفصيحها مدح ملوك الأندلس كان صدوقاً ثقة[12]، وأخيرا قال عنه ابن كثير بأنه: " كان من الفضلاء المكثرين والعلماء بأخبار الأولين والآخرين[13].

موارد ابن عبد ربه:

وتلك المكانة العلمية لم ينالها ابن عبد ربه من فراغ إنما تتلمذ على يد العديد من علماء عصره، وقد تأثر بهم وما نهله منهم من علوم ومعارف شتى، من خلال تلقفه العلوم الدينية والفقهية وعلوم الحديث واللغة ودواوين الشعر والتاريخ والأخبار والسير، كل ذلك وغيره قد صقل شخصية ابن عبد ربه.

ومن هؤلاء المشايخ كل بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن الحافظ[14]، وهو أحد علماء الأندلس ذو رحلة واسعة ومشهورة، وله مسنده الذي فضله البعض على مسند احمد بن حنبل[15]، رحل إلى المشرق وكانت رحلته ذات فائدة كبيرة فقد التقى بعدد غير قليل من علماء عصره واستفاد منهم فائدة كبيرة فقد سمع بالحجاز مصعباً والزهري وطبقتهما، وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عباد والطاهر بن السرح وطائفة , وفي دمشق إبراهيم بن هشام الغساني، وصفوان بن صالح، وهشام بن عمار[16]، وفي العراق فقد كانت رحلته طويلة فقد التقى بما يقارب أكثر من مائتي رجل روى عنهم فقد التقى بأحمد بن حنبل وطبقته في بغداد، وفي أيام المحنة وبظروف صعبة جعل ابن حنبل يذكره بشكل دائم في مجلسه بعد انتهاء المحنة في كيفية لقائهما، وبالكوفة يحيى بن عبد الحميد الجماني، ومحمد بن عبد الله بن عبد، وابن أبي شيبة وطائفة[17].

ومن مشايخ ابن عبد ربه أيضا لدينا الحافظ محمد بن وضاح بن بزيخ أبو عبد الله، الأموي القرطبي مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل[18]، وهو الذي سمع وتعلم في بداية حياته على عدد من مشايخ وعلماء الأندلس، ومنهم يحيى بن عيسى، ومحمد بن خالد وغيرهم[19]، وفي سنة (218هـ/ 833م) رحل محمد بن وضاح إلى المشرق وكانت رحلته الأولى، ولقي فيها سعيد بن منصور، وآدم ابن أبي إياس، واحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وسمع منهم ومن جماعة كبيرة وصل عددهم ما يقارب المائة والستون رجلاً من المصريين والشاميين والبغداديين والبصريين والمكيين[20].

كما تتلمذ ابن عبد ربه عن العالم الكبير محمد بن عبد السلام الخشني[21]، وهو من علماء الأندلس الذين نقلوا علوم المشرق إلى بلاد الأندلس، من خلال رحلاتهم في طلب العلم والحج، فقد خرج قبل (240هـ/ 854م) للحج، وبعد إكماله مراسم الحج التقى بالعديد من علماء مكة مثل محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني صاحب عتبة اخذ منه مصنف ابن عينه[22]، ورحل الخشني بعد ذلك

إلى البصرة فسمع فيها من محمد بن بشير بندر، ونصر بن علي الجهضمي، وابن بنت أزهر السمان، وغيرهم من أصحاب الحديث، والتقى كذلك في البصرة بالعديد من علماء اللغة الذين اخذ منهم رواية الأصمعي، ودخل بغداد فسمع أكثر من واحد، وكتب بها كتب أبي عبيد القاسم بن سلام' وسمع بمصر محمد بن عبد الرحمن البرقي[23].

ومن خلال هؤلاء المشايخ وما نقلوه من علوم ومعارف مسموعة ومكتوبة نهل ابن عبد ربه مادته العلمية لكتابه العقد الفريد، من خلال الالتقاء والسماع المباشر من هؤلاء الشيوخ وغيرهم، أو من خلال ما نقلوه من مؤلفات مشرقية إلى بلاد الأندلس.

كما يقينا نهل ابن عبد ربه معلوماته في كتابه عن المصادر المشرقية التي كانت متوفرة بكثرة في مكتبات الخاصة لدى أمراء وخلفاء الأندلس، فيذكر مثلا أن دار الخلافة في عهد عبد الرحمن الناصر أصبحت مقراً للمؤلفين والباحثين، فإذا ما أرادوا الرجوع لمصادر المكتبة أو التمسوا اعتزال والتفرغ للكتابة والتأليف دخلوا مكتبة القصر[24]، مما يدل على أن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان قد فتح أبواب قصره لأهل العلم والأدب[25].

وقد جعل ابنه وولي عهده الحكم المستنصر مشرفاً على هذه الدار أو المكتبة أو بين الحكمة ورعاية واهتمام العلم والعلماء في مملكته، وقد ذكر ذلك ابن صاعد الأندلسي بقوله: "ثم لما مضى صدر المائة الرابعة انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ولذلك في أيام أبيه إلى العناية بالعلوم وإيثار أهلها، واستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار الشرق عيون التواليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة، وجمع منها من بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه من عيد ما كاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة"[26].

ولاختيار الخليفة وولده وولي عهده لهذه المهمة لهي دلالة كبيرة على محبته ورعايته للعلم والعلماء، فكثر تحرك الناس في زمانه لقراءة الكتب الأوائل وكانوا العامة قبل الخاصة يتنافسون في جمع الكتب وتأسيس مكتبات خاصة في بيوتهم، فانتشرت على اثر ذلك تجارة الكتب والورق، وقد شجع هذا الوفادات العلمية واستقدام العلماء المشارقة إلى الأندلس وكان اختيارهم من الأساتذة والعلماء الجيدين، فأعطاهم فرصة للتعلم والتعليم في مساجد قرطبة والتي زخرت بالمكتبات والكتب القيمة، مما أسهم في رفع المستوى العلمي والتعليمي لأهل الأندلس وشجع على الرحلة من الأقاليم المجاورة لقرطبة، وجعل لهؤلاء امتيازات خاصة من المسكن والمأكل والمشرب وجعل لهم رواتب خاصة لهم[27]، وخلال تلك الفترة فإن ابن عبد ربه لم يكن بالبعيد عنها فقد صار من المقربين للخليفة عبد الرحمن الناصر وأصبح شاعر القصر وشاعر الخليفة ومن المقربين من السلطة الحاكمة في الأندلس[28].

كما وصلت بعض المؤلفات المشرقية إلى الأندلس من خلال الرحلات الثقافية في تصدير الثقافة الأدبية والفكرية الشرقية للمغرب الأقصى والأندلس، أما عن طريق البعثات العلمية، أو عن طريق شراء أو إهداء الكتب المشرقية لأدباء الأندلس وغيرهم، أو عن طريق وفود الحجيج إلى مكة المكرمة وتكون احد أسباب التعارف والتلاقح الفكري بين أدباء الأندلس وأقرانهم في المشرق الأمر الذي ينتج عنه تبادل الأفكار بين الطرفين[29].

وقد اعتمد ابن عبد ربه على العديد من المصادر المهمة ولمؤلفين كبار من المشرق الإسلامي، حتى أن القارئ قد يتوهم للوهلة الأولى أن ما دونه ابن عبد ربه عن تاريخ المشرق ما هو إلا نتاج رحلاته العلمية للمشرق الإسلامي، إلا أننا ومن خلال دراستنا لحياته لم نجد رحلة علمية أو رحلة عامة إلى المشرق الإسلامي أو إلى أي مكان آخر.

منهج ابن عبد ربه في الكتاب:

قسم ابن عبد ربه كتابه العقد الفريد كتابه عدة فنون موزعة على خمسة وعشرون كتابا، اختص كل كتاب بفن معين من الفنون التي أوردها في الكتاب، وأطلق على كل كتاب من تلك الكتب اسم جوهرة، وذلك ما صرح به هو في مقدمة كتابه بقوله: "وقد الفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي في تأليف الأخبار وفضل الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش في صدر كل كتاب، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء،

والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه، وقد قالوا: اختيار الرجل وافد عقله"[30]، فكانت تلك الفقرات هي التي كونت لنا نسيج العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ذلك الكتاب الأدبي والتاريخي الذي لا يمكن لأي باحث في التاريخ الإسلامي الاستغناء عنه.

وواقعا فعلى ذلك يعد كتاب العقد الفريد من المصادر المهمة التي يرجع إليها الباحثون في دراسة التاريخ السياسي والعسكري والإداري والاجتماعي والأدبي للعرب والمسلمين منذ فترة قبل الإسلام وحتى فترة قريبة من وفاة المؤلف، فنجد في كتابه أخبارا عن الأمم السابقة، وأخبارا عن أحوال العرب قبل الإسلام، وأخبار عن تاريخ صدر الإسلام والدولتين الأموية والعباسية، فضلا عن بعض أخبار المسلمين في المغرب والأندلس.

ولاعتزاز ابن عبد ربه بكتابه فقد أشار إلى المنهجية التي اتبعها في مقدمة كتابهِ بقوله: "وقد ألفت هذا الكتاب وتخيَّرت جواهره من متخيَّر جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجواهر ولباب اللباب وإنما لي فيه تأليف الأخبار أو فضل الاختيار وحسن الاختصار، وقرش في صدر كلّ كتاب، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه"[31].

وقد قدم ابن عبد ربه رواياته تلك بأسلوب أدبي صرف طالما أن الهدف الأساسي من الكتاب هو الجانب الأدبي، وقد صرح بذلك المنهج بقوله: "وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متصرفة في فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة وتدور على السنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر، تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذهبها وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا إن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور"[32].

كما أعطى ابن عبد ربه سبب تصنيفه للعقد الفريد بقوله: "وبعد: فإن أهل كل طبقة، وجهابذة كل أمة، قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كل لسان، ومع كل زمان، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني المتقدمين، واختيار جواهر ألفاظ السالفين، وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار، والمتخير إلى اختيار"[33].

وقد رسم ابن عبد ربه منهجه في تعامله مع مصادر رواياته بعدة طرق، فهو في الدرجة الأولى لم يذكر أسانيده ومصادره ولم يشر إليها في غالب الأحوال، فهو على العموم في غنى عنها لأن تلك كانت طريقة المؤرخين في تصانيفهم وليس من شأن الأدباء والشعراء، وقد كان عمل ابن عبد ربه في هذا الكتاب عملا أدبيا خالصا، وأن ذكره لتلك الأخبار التاريخية كان في سبيل خدمة الجانب الأدبي الذي كان يتطلب منه الاستشهاد بالروايات التاريخية، وقد نص ابن عبد ربه على ذلك المنهج في مقدمتهِ بأنه حذف الأسانيد من رواياته بقوله: "وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز وهرباً من التثقيل والتطويل، لأنها أخبار ممتعة وحكم نوادر، لا ينفعها الإسناد باتصاله، ولا يضرها ما حذف منها"[34].

وقد علل ابن عبد ربه حذفه للإسناد أيضا على حد قوله بأنها كانت سنة البعض في ذكر الأخبار، وذلك حين قال: " كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة متبعة، وشريعة مفروضة، فكيف لا نحذفه من نادرةٍ شاردة، ومثل سائر، وخبر مستطرف"[35]، وقد أعطى ابن عبد ربه مثالا على ذلك في رواية بقوله: "وحدث الحسن البصري بحديث، فقيل له يا أبا سعيد، عمن؟ قال: وما تصنع بعن يا ابن أخي؟ أما أنت فنالتك موعظته و قامت عليك حجته"[36]، وتلك كانت طريقته في ذكر اغلب رواياته في كتابه، فكما أوردنا أراد ابن عبد ربه أن يوظف الرواية التاريخية للجانب الأدبي، فلم يجد فائدة من ذكر السند التي كانت لا تجدي له تلك الطريقة نفعا، لأنه أراد الاستشهاد بحالة معينة صدقت تلك الرواية أم كذب مضمونها.

بيد أن هناك جملة مواضع عديدة من كتابه كان ابن عبد ربه يذكر مصادره علانية وأسانيده عن شيوخه أيضا، مما يدخلنا ذلك الأمر في حيرة بحيث يعطي لنا ذلك الأمر بأن روايات ابن عبد ربه غير متزنة أو مستقيمة سيما وانه كان يذكر روايات مرسلة عن مؤلفين أو إخباريين أو أشخاص سبقوه بمئات السنين، كقوله: "وقال النبي (ص)"، وقوله: "وقال عبد الله بن عمر"، وقوله: "وقال كعب

الأحبار"[37]، وقوله: "وقال يحيى بن أكثم"[38]، وقوله: "وقال الحسن البصري"[39]، وفي رواية قال: "عكرمة عن ابن عباس عن علي ابن أبي طالب "، وقوله أيضا: " الهيثم بن عدي عن عوانه قال"[40].

وفي بعض المواضع كان ابن عبد ربه يذكر الرواية بسندها كاملا كما وردت في موردها الأصلي، وليس ذلك لشيء ما في مخيلته ولكنه شاهدها كذلك فدونها كما هي، ففي رواية ذكرها عن السلامي قال: "القاسم بن محمد السلامي قال: حدثنا احمد بن بشير الأطروش قال حدثني يحيى بن سعيد قال: اخبرني الأصمعي قال..."[41].

وأحيانا كان ابن عبد ربه دقيقا في ذكره موارده حينما يذكر اسم الكتاب مع اسم المؤلف، مما يسهل ذلك على القارئ الوصول سريعا إلى موضع تلك الرواية في موضعها الأصلي، نحو قوله: "ذكر هذا محمد بن يزيد في الكامل"[42]، وقوله: "قال أبو عبيده في التاج"[43]، وقوله أيضا: "قال ابن إسحاق صاحب المغازي"[44].

ومع ذلك ففي مواضع أخرى كان ابن عبد ربه يذكر في اغلب الأحيان اسم المؤلف دون ذكر اسم كتابه كقوله: "أبو الحسن المدائني قال"[45]، وقوله: "أبو بكر ابن أبي شيبة قال"[46]، وقوله: "خليفة بن خياط قال"[47]، ونحو ذلك.

وأحيانا يجعل ابن عبد ربه رواياته شبه مبهمة حين يذكر اسم الكتاب ولم يذكر اسم مؤلفة، سيما وإذا كان الكتاب مجهول لنا ولا نعرف على وجه التحديد من هو مؤلفه، كقوله: "في كتاب الهند"[48]، وقوله: "وكان صاحب الفلاحات يقول"[49]، ونحو ذلك.

وحينما تكون الرواية منقولة من احد شيوخه فإن ابن عبد ربه كان يصرح بذلك، كقوله: "ومن حديث الخشني قال" وقوله: "الخشني عن أبي حاتم السجستاني قال"، وقوله: "وفي رواية محمد بن عبد السلام الخشني قال"، وقوله: "محمد بن سلام الخشني قال"[50]، ونحو ذلك.

المنهج النقدي في رواياته:

على الرغم من كون ابن عبد ربه رجلا أديبا وشاعرا إلا انه مارس النقد التاريخي بشكل أو بأخر للروايات التي شكلت نسيج كتابه متنا وسندا، فقد مارس نقده لبعض المؤلفين الذين نقل منهم مادته التاريخية، فقد انتقدهم بشكل أو بأخر على طريقة المؤرخين الكبار، كما اصدر في بعض الأحيان عدة أحكام واجتهادات تعكس موقف من بعض الأحداث.

وعلى الرغم من أن نقد الروايات وتحليلها تحليلا علميا يتطلب قدرة عالية من الاستقراء والمقارنة الأمر الذي يحتاج إلى ذكاء مفرط وقوة ملاحظة، نجد ابن عبد ربه ناقدا ومحللا لبعض الروايات التي أودعها في كتابه، وهو الأمر الذي يعطي فكرة أن الرجل في بعض الأحيان لم يكن ناقلا للرواية التاريخية فحسب بل كان ناقدا ومحللا لها عندما يستوجب الأمر النقد والتحليل.

فمثلا لم يقتنع ابن عبد ربه بكلام ابن قتيبة حول الخمر، فذكر آراء ابن قتيبة ثم اخذ يفندها شيئا فشيئا، فقد أورد الحديث عن ذلك بقوله: "مناقشة ابن قتيبة في قوله في الاشربة"، ثم يورد نص الحديث قائلا: " قال في كتابه – أي ابن قتيبة –: فإن قال قائل: إن المنكر هي الشربة المسكرة، أكذبه النظر، لأن القدح الأخير إنما أسكر بالأول، وكذلك اللقمة الأخيرة إنما أشبعت بالأولى، ومن قال السكر حرام، قال: فإنما ذلك مجاز من القول، وإنما يريد: ما يكون منه السكر حرام، وكذلك التخمة حرام "، ثم أردف ابن عبد ربه قائلا: "وهذا الشاهد الذي استشهد به في تحريمه قليل ما أسكر كثيره، وتشبيهه ذلك بالتخمة شاهد عليه لا شاهد له، لأن الناس مجمعون على أن قليل الطعام الذي تكون منه التخمة، حلال، وأن التخمة حرام، وكذلك ينبغي أن يكون قليل النبيذ الذي يسكر كثيره حلالا، وكثيره حراما، وأن الشربة الأخيرة المسكرة هي المحرمة"[51]، ثم قال ابن عبد ربه أيضا منتقدا ابن قتيبة: "ثم زعم في هذا الكتاب بعينه أن الخمر نوعان، فنوع منهما أجمع على تحريمه، وهو خمر العنب من غير أن تمسه نار، لا يحل منه لا قليل ولا كثير، ونوع آخر مختلف فيه، وهو نبيذ الزبيب إذا اشتد، ونبيذ التمر إذا صلب، ولا يسمى سكرا إلا نبيذ التمر خاصة... قال ابن قتيبة: وقال آخرون: هو خمر حرام كله، وهذا هو القول عندي، لأن تحريم الخمر نزل وجمهور الناس مختلفة، وكلها يقع عليها هذا الاسم في ذلك الوقت"[52].

وقد يكتفي ابن عبد ربه أحيانا في نقده لبعض الروايات بألفاظ دالة على ذلك النقد مثل: "زعموا"[53]، و: "زعم"[54].

وفضلا عن ذلك كان ابن عبد ربه فيما يبدوا غير مقتنع ببعض الروايات فلما يجعلها وحيدة إنما يعطي أيضا تلك الحوادث عندما ترد عنها روايات أخرى، فهو مثلا حينما يورد رواية ما يردفها برواية أخرى بقوله: " وفي رواية أخرى " (55)، دلالة على عدم تيقنه تماما منها وإلا لجعلها وحيده شأنها شأن غالبية رواياته المنفردة.

أو يستخدم ابن عبد ربه أحيانا الفاظ داله على نقده وعدم اطمئنانه للرواية الواردة باستخدام الفاظ دالة على ذلك مثل "يقال، وقالوا، وقيل، وقال" ونحو تلك الألفاظ المبنية للمجهول[56].

ولأن ابن عبد ربه كان رجلا شاعرا فنجده طالما ينتقد أبيات الشعر التي ترد وهي يراها مخالفة لقوانين الشعر والأدب العربي[57].

الاستقصاء والتدقيق:

حرص ابن عبد ربه في بعض رواياته على التدقيق في تعريف بعض الألفاظ والمصطلحات التي ترد في رواياته وأبيات الشعر التي يذكرها، أو التعريف في بعض المدن الإسلامية الواردة ضمن تلك الروايات، في محاولة منه لجعل القارئ على بينة وبصيرة من مضمون تلك الروايات الواردة في كتابه، وتلك حالات نادرة إذ أن الصفة العامة كانت تعكس لنا صفة الإبهام في غالبية الروايات فيما يخص المصطلحات أو المدن أو حتى أسماء الأشخاص الواردة في رواياته في العقد الفريد.

فبالنسبة إلى التعريف ببعض الألفاظ الواردة في أبيات الشعر نجد أن ابن عبد ربه كان يعطي تعريفا لغويا أو تعريفا اصطلاحيا لها، فعندما أورد ابن عبد ربه شعرا لأحد الشعراء ومضمونه:

إنّ بني زملوني بالدم شنشنة أعرفها من أخزم

من يلق أبطال الرجال يكلم

وقد عرف ابن عبد ربه بعض الفاظ ذلك الشعر بقوله: "والشنشنة الطبيعة، وأخزم فحل معروف، وهذا مثل للعرب"[58].

كما نجد مثل تلك الإشارة حينما أورد ابن عبد ربه رواية جاء فيها ذكر لأنواع الحيوانات والطيور التي قد لا يعرف أصنافها العامة، وحينما انتهى من إيراد تلك الرواية علق عليها قائلا: "الصفار: ذو الصفير من الطير، العود: المسن من الجمال، الأنوق: طير يقال إنه يبيض في الهواء، والزبابة: الفأرة تسرق دود الحرير، وفاختة: طير يطير بالرطب في غير أيامه"[59].

وقد عرف ابن عبد ربه بعض الأماكن والمدن حينما ترد في متن بعض الروايات، نحو تعقيبه على رواية ورد فيها موضع الحوأب، بقوله: "والحوأب: قرية في طريق المدينة إلى البصرة، وبعض الناس يسمونها الحوب، بضم الحاء وتثقيل الواو، وقد زعموا أن الحوأب: ماء في طريق البصرة"[60]، وقوله عند ورود موضع الكرخ في بعض أبيات الشعر: "الكرخ: منزل أبي دلف"[61].

وقد يعطي ابن عبد ربه لنا طرفا من هوية شخص ما أو اسمه الصريح وجد ابن عبد ربه ضرورة ملحة على ذلك، نحو قوله بعد ذكر أبي دلف في قصة دخوله على المأمون: "وكان اسمه قاسم بن عبد الله"[62]، وقوله معقبا بعد ذكر أحد العلماء وهو مسلم بن يسار قائلا: "وكان مسلم بن يسار عالما عابدا عاقلا"[63].

الاختصار:

بيد أن أهم ما تميزت به روايات ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد هي صفة الاختصار للغالبية منها، ويبدوا أن ذلك كان أمرا طبيعيا إذ لم يكن الهدف من تلك الروايات إظهار حقيقة تاريخية ما عن حالة معينة بقدر ما أراد المؤلف هنا توظيف النص التاريخي لخدمة الجانب الأدبي.

وقد صرح ابن عبد ربه بأنه سيكون حريصا في اختصار رواياته قدر الإمكان وانه سيختار الروايات الجميلة الأصيلة التي تدخل في صلب الموضوع متجنبا بذلك الإطالة أو الإسهاب الذي قد لا يجدي نفعا بالنسبة لأديب بارع في علوم اللغة والأدب، فقد قال

في مقدمة كتابه: "وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهرا، وأظهرها رونقا، وألطفها معنى، وأجزلها لفظا، وأحسنها ديباجة، وأكثرها طلاوة وحلاوة "[64].

وليس ذلك فحسب إنما كان عدم ذكر المصادر والأسانيد في مرويات ابن عبد ربه جزءا من ظاهرة الاختصار التي حرص على تطبيقها في العقد الفريد، وقد صرح عن ذلك أيضا كجزء من المنهج الذي اتبعه في مؤلفه بقوله: "وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للاستخفاف والإيجاز، وهربا من التثقيل والتطويل، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر، لا ينفعها الإسناد باتصاله، ولا يضرها ما حذف منها"[65].

وعند تصفح أوراق العقد الفريد نجد أن هناك منهج واضح في بعض المواضع لصفة الاختصار، فمثلا كان ابن عبد ربه عندما يريد الاستشهاد ببعض الروايات والأقوال والأمثال يقول: " ومنه قولهم "، وهي عبارة كثيرا ما يستخدمها للدلالة على اختيار جزء من تلك الأقوال أو الأمثال[66].

وحينما كان يستشهد ابن عبد ربه بأبيات من الشعر فإنه كان أحيانا يذكر المفيد منها الذي يخدمه في كتابه هذا فيورد جزءا من أبيات الشعر ويستقطع أخرى ثم يقول: "حتى انتهى إلى قوله"[67]، وحينما يذكر بعض صفات الشخصيات الواردة في كتابه فإنه يختار جزءا منها، نحو قوله: "من بلاغة زبيدة"[68]، وقوله: "من حلم الأحنف"[69]، ثم يذكر جزءا من تلك البلاغة وذلك الحلم وهو نوع من أنواع الاختصار، لأنه إذا أراد الاسترسال فلم يعلم ما مقدار الأوراق التي يحتاجها في مؤلفه والتي قد لا تخدمه هنا، فهو يذكر ما يخدم مهمة كتابه الأدبي.

كما نستشف من ذكره لبعض الأخبار والأشعار أن له منهجا واضحا في الاختصار فهو لم يذكر المشهور منها والمعروف بل كان يذكر النادر منها من الذي لم يرد سابقا إلا ما ندر، فعند حديث ابن عبد ربه عن غزوات الخليفة الأندلسي عبد الرحمن بن محمد قال: " وقد قلت وقيل في غزواته كلها أشعار قد جالت في الأمصار، وشردت في البلدان، حتى أتهمت وأنجدت وأعرقت، ولولا أن الناس متكتفون بما في أيديهم منها لأعدنا ذكرها أو ذكر بعضها، ولكنا سنذكر ما سبق إلينا من مناقبه التي لم يتقدمه إليها متقدم ولا أخت لها ولا نظير، فمن ذلك..."[70].

الخاتمة:

وبعد فقد كانت تلك دراسة مبسطة ومختصره عن طبيعة الرواية التاريخية في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، وقد وقفنا فيها على شيء من رسم المعالم الأساسية على تلك الرواية، فمع أن كتاب العقد الفريد كان كتابا أدبيا، فقد وجدنا فيه أو أن غالبيته عبارة عن روايات تاريخية متنوعة ما بين السياسية والعسكرية والادارية والاجتماعية والاقتصادية، كما يمكن عد هذا الكتاب انه مستودعا لتاريخ العرب قبل الإسلام، وفيه روايات كثيرة جدا عن انساب العرب وبيوتاتهم وغزواتهم وأيامهم قبل الإسلام وبعده، بيد أن أهم شيء وقفنا عليه أن اغلب رواياته تميزت بطابع الاختصار وخلوها من السند أو ذكر مصادرها الأصلية، مما يضعف ذلك من مصداقية تلك الروايات التي لا يسند تقبلها إلا معرفة مناهلها الأساسية، سيما وأن غالبية روايات ابن عبد ربه كانت عن المشرق الإسلامي وهو رجل أندلسي لم يرى يوما بلاد المشرق الإسلامي أو القريبة منها.

هوامش البحث ومصادره:

1- ينظر ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، (ط2، دار الكتاب المصري – القاهرة،1989م)، 1/ 87 ؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، (دار صادر – بيروت، 2000م)، 82/ 8.

2- ابن الآبار: المقتضب من كتاب تحفة القادم، (ط3، دار الكتاب المصري – القاهرة)، ص147.

3- ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء , (ط1، دار الحياة – بيروت)، ص489.

4- ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء , (القاهرة، 1955م)، ص104.

5- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (دار الثقافة – بيروت)، 1/ 110؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، 8/ 9؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، (ط1، دار الكتب العلمية – بيروت، 1997م)، 2/ 223.

6- المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (ط1، دار صادر – بيروت)، 1/ 261.

7- عبد الستار فراج: العقد الفريد لابن عبد ربه، (مجلة العربي، العدد 142 سبتمبر، 1972م)، ص100.

8- اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، (ط1، دار الكتب العلمية – بيروت، 1997م)، 2/ 222.

9- الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، (ط1، دار الغرب – تونس، 2008م)، ص151.

10- الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (ط2، دار الكتاب العربي – بيروت، 1998م)، 24/ 222.

11- الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، (ط1، دار الكتب العلمية – بيروت، 2000م)، 2/ 85.

12- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، (ط2، دار الكتب القومية – القاهرة، 2005م)، 3/ 266.

13- ابن كثير: البداية والنهاية، (ط1، دار إحياء التراث العربي – بيروت، 1988م)، 11/ 219.

14- ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، 1/ 87؛ السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (ط1، سوريا)، 1/ 371.

15- ابن الفراء: طبقات الحنابلة، (دار المعرفة – بيروت)، 1/ 120؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 11/ 66.

16- الصفدي: الوافي بالوفيات، 10/ 10، 115.

17- ابن مخلد القرطبي: ما روي في الحوض والكوثر، (بلا معلومات نشر)، ص43.

18- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، (دار الفكر – بيروت)، 56/ 179.

19- الذهبي: سير أعلام النبلاء، (ط9، مؤسسة الرسالة – بيروت، 1998م)، 13/ 445.

20- الذهبي: سير أعلام النبلاء، 13/ 446.

21- ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس , ص648 ؛ ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، (دار صادر – بيروت)، 1/ 446.

22- ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، 1/ 443.

23- ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص649.

24- أحمد بدر: الحياة الفكرية في الأندلس، (مجلة دراسات تاريخية، العددان 19- 20، دمشق، 1985م)، ص110.

25- ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ,ص488.

26- ابن صاعد: طبقات الأمم، (دار المعارف – القاهرة، 1993م)، ص 87.

27- بدر: الحياة الفكرية في الأندلس، ص108.

28- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 239/5.

29- سهى بعيون: التواصل الثقافي بين الأندلس والمشرق، (بحث منشور في مجلة كلية الآداب والفنون، مؤتمر فيلادفيا الدولي الرابع عشر)، جميع الصفحات.

30- ابن عبد ربه: العقد الفريد، (دار الكتب العلمية – بيروت، 2006م)، 1/ 4.

31- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 4.

32- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 6.

33- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 4.

34- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 5 – 6.

35- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 6.

36- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 6.

37- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 10.

38- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 2/ 268.

39- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 8/ 6.

40- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/ 280، 283.

41- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 6/ 159.

42- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 2/ 99، 7/ 186- 187.

43- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 5/ 87.

44- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/ 222.

45- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 5/ 15.

46- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 53.

47- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 48.

48- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 12، 19/1، 1/ 42.

49- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 7/ 6.

50- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 5/ 71، 7/ 121، 8/ 7.

51- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 8/ 67.

52- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 8/ 68.

53- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 5/ 79.

54- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 8/ 68.

55- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 5/ 227.

56- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ينظر مثلا 1/ 135، 139، 179، 2/ 165، 3،202/ 273.

57- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 6/ 129، 133.

58- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 2/ 65.

59- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/ 11.

60- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 5/ 79.

61- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 2/ 40.

62- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 2/ 40.

63- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 2/ 87.

64- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 5.

65- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 5 – 6.

66- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ينظر مثلا 3/ 24 وما بعدها.

67- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 2/ 56/

68- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/ 133.

69- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/ 136.

70- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 5/ 239 – 240.